جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة
قسم التاريخ

السنة الأولى: ماستر 01

تخصص: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

ملخص محاضرات مقياس مدخل لنهاية ماقبل التاريخ في إفريقيا جنوب الصحراء

تقديم الدكتور: سمير بوطيش

المحاضرة الأولى

مدخل عام

ماقبل التاريخ هو تلك العصور التي سبقت الفترة التي نحن في صدد العيش فيها، ويقصد بها كذلك العصور التي بدأت معها حضارة الانسان البدائي، أو ذلك الدهر الذي استطاع فيه الانسان الأول أن يصنع فيه شيئا عن قصد ورغبة وتخطيط، يبدأ منذ ظهور الانسان إلى اختراع الكتابة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، يتناول كل قسم ميدانا خاصا، يتطرق القسم الأول إلى الإطار البيئي والزمني الذي نشأت وتطورت فيه حضارات انسان ماقبل التاريخ، أما القسم الثاني فيتعلق بدراسة التطور البيولوجي للإنسان، ويتضمن القسم الثالث حضارات انسان ماقبل التاريخ حسب تسلسلها الزمني.

عرفت العصور الماقبل تاريخية بالعصور الحجرية لأن الانسان استعمل فيها الأدوات الحجرية لأغراضه اليومية، إضافة إلى كون تلك الصناعات هي ما أصبحت تميز الانسان عن غيره، تطورت بتطور الانسان وتعدد أغراضه واحتياجاته، كانت في البداية عبارة عن صناعة بسيطة لتصلح في آخر المطاف صناعة قزمية معقدة ومتشعبة.

العصر الحجري القديم: يعني الفترة القديمة للصناعات الحجرية، تمتد من 2.3 مليون سنة إلى حوالي 12 ألف سنة ق. م.

العصر الحجري الوسيط: هي فترة حضارية انتقالية قصيرة تتوسط الباليوليتي والنيوليتي، ظهرت خاصة في أوربا، تمتد من 12 ألف سنة إلى 05 آلاف سنة ق. م.

العصر الحجري الحديث: يمتد من الألف الخامسة إلى الألف الأولى ق. م.، وهو آخر مرحلة من العصور الحجرية، حدثت خلاله تطورات وتغيرات جذرية في حياة الانسان ونمط معيشته، تميز النيوليتي بظهور أدوات حجرية جديدة وتقنيات صناعة الأواني الفخارية وغزل الصوف ونسج الألبسة وصناعة الحصير، كما طور صناعة الخشب وأدوات النقل المائية.

لم يظهر النيوليتي في جميع أنحاء العالم وفي نفس الزمن، فيظهر لأول مرة في الشرق الأوسط في حدود 7000 سنة ق. م.، ليتوسع فيما بعد إلى الغرب، حيث يظهر في الصحراء في حدود 6000 ق. م.، وفي أوربا في حدود 5000 ق. م.

وبانتهاء فترة النيوليتي تنتهي العصور الحجرية ليعرف الانسان بعد ذلك العصور المعدنية وفترة فجر التاريخ.

كان الانسان خلال العصور الحجرية القديمة يعتمد في حياته على جمع الطعام وقطف الثمار، أما السمة الأساسية التي تميز بها العصر الحجري الحديث هي انتقال الانسان من عملية جمع الطعام إلى عملية إنتاج الطعام بزرع البذور وجني المحاصيل وفي تربية الحيوانات المستأنسة والرعي، وقد أدت هذه العملية التحولية إلى الزيادة في أعداد الانسان في المجتمعات، وكانت معظم التجمعات السكانية التي انتهجت الزراعة واستئناس الحيوانات كأسلوب جديد للحياة تعيش مستقرة في أماكن محددة أخذت شكل القرى التي تحيط بها الأسوار أحيانا، أما المجتمعات السكانية التي اعتمدت على الرعي فقد عاشت حياة التنقل، كانت ترحل باستمرار ومعها قطعانها إلى حيث توجد المراعي الصالحة حسب فصول السنة، وهكذا ظهر التمايز الجوهري بين الفلاح والبدوي، أي بين سكان المناطق العشبية التي لا تصلح لشيء إلا للرعي وبين الفلاحين الذين يعيشون مستقرين بالقرى ويؤهلون أنفسهم لحياة حضرية جديدة ازدادت فيها المعدلات السكانية.

ولم تلعب إفريقيا جنوب الصحراء دورا بارزا في هذه التطورات بل ظلت بعيدة عن هذا التطور إلا في فترات متأخرة، حيث انتقل هذا الأسلوب الجديد من العيش من جنوب شرق آسيا إلى مصر وشمال غرب إفريقيا ومنها جنوبا إلى السودان وكامل إفريقيا في نحو 3 آلاف سنة ق. م.، ورغم أن ثورة الاستقرار الزراعي وصلت إلى إفريقيا متأخرة، إلا أنها تطورت فيما بعد تطورا بطيئا، إلا أن الكثير من المجتمعات الإفريقية بقيت تستعمل تكنولوجيا العصر الحجري حتى نهاية الألف سنة الأولى للميلاد، لذا من المستحيل أن نحدد تاريخا دقيقا لنهاية الفترة قيد الدراسة.

المحاضرة الثانية

دور علم الآثار كمصدر لدراسة ماقبل التاريخ

تعتبر الوثائق المكتوبة وعلم الآثار والتواتر الشفهي ركائز المعرفة التاريخية، وهي مصادر مهمة وصعبة المنال في نفس الوقت، ويدعم هذه المصادر الثلاثة علم اللغات وعلم الأجناس البشرية.

– *علم الآثار:* كثيرا ما تكون الشواهد التي أظهرها علم الآثار أفصح من الشهود الرسميينالمتمثلين في بعض مصنفي التواريخ، مع التذكير بما أحرزه هذا المجال في فترة ماقبل التاريخ وبالتحديد جراء تلك المكتشفات الرائعة والقيمة، حيث لم يكن بالإمكان توفر أو وجود أخبار شفهية أو كتابية، فالشواهد وحدها تكشف لنا ذلك التاريخ، وفي لغة اللقى الأثرية بطبيعتها شيء موضوعي لا يقبل

الرّدّ ولا الشّك، فتحديد تلك المواطن الأثرية الإفريقية وتصنيفها تفرض نفسها كأولوية قبل أن ينهبها المفسدون والجهال والسياح المجردون من نية العلم.

تدلّ بعض تلك الشواهد دلالة مميزة على معالم ومعايير الحضارة مثل الأدوات الحديدية وطرق صناعتها والخزفيات وطرق إنتاجها ونماذجها وتقنيات الصيد والنسيج.

– *الوثيقة المكتوبة:* تفيدنا هذه الطريقة في كتابة تاريخ الفترات القديمة والحديثة فلا نجد لها دور في فترة ماقبل التاريخ لأنها لم تكن موجودة أصلا.

– *النقل الشفهي:*هو ثالث المصادر التي يعتمد عليها تاريخ إفريقيا قبل ظهور الكتابة، والخبر التاريخي الشفهي هو مجرد خيط عنكبوتي له من الهشاشة ما لايمكنه من اجتياز السراديب المظلمة في متاهات الزمن، كما يعتبر النقل الشفهي المصدر التاريخي الأكثر ألفة وهو أعذب المصادر، خاصة ما تعلق بأمور العبادات التي انتقلت عاداتها عن طريق الرواية الشفهية، إضافة إلى ما تعبر عنه تلك الرسومات الصخرية من مواضيع صيد ورقص وأمور دينية، ويبدو أن النقل الشفهي هو الحافظ والحامل لرأس مال الإبداعات الاجتماعية والثقافية الذي جمعته الشعوب التي لم تستخدم الكتابة بعد، فهو حقا متحف حي، وما يغذيه أكثر هو رواة الصدق، يقول مثل إفريقي: فم الشيخ أبخر، لكنه يتفوه بالأمور الطيبة المنجية، لكن من اللازم اقتحام الكثير من العقبات لتصفية مادة النقل الشفهي وغربلة الوقائع وتجاوز زيف العبارات وبريقها.

المحاضرة الثالثة

إفريقيا الشرقية

كان استقرار الانسان على حواف البحيرات والأنهار خلال الألفيات 07 و05 قبل الحاضرسبب نشوء الرعي والفلاحة، ومن أشهر المواقع شهرة هو موقع الشهانب جنوب السودان الذي عثر به على أدوات صيد وبقايا عظمية لحيوانات مختلفة، ما يدل على تعاطي ذلك الانسان الصيد والزراعة، كما اشتهرت المنطقة في هذه الفترة بانتشار الفخار المزيّن بطرق بدائية لحفظ السوائل والحبوب، كما عرفت المنطقة كذلك إزدهار أدوات الصيد المختلفة، ولا توجد أدله على وجود الزراعة لا بإثيوبيا ولا كينيا ولا تنزانيا، مع وجود أدلة على الرعي وتربية الماعز والضأن والبقر التي كانت تربى لحليبها ثم للحمها.

كان مناخ المنطقة خلال هذه الفترة رطبا جدا، ولهذا كانت البحيرات مترامية الأطراف وكانت المستنقعات أكثر اتساعا والأنهار قوية وطويلة، وظهر العصر الحجري الحديث بمرتفعات إثيوبيا ثم انتشر إلى الجنوب اعتمادا على تحركات صغيرة كان يقوم بها السكان، ومن الممكن القول أن سكان المنطقة لم يعيشوا في قرى مستقرة بمعنى الكلمة، إلا أنهم استطاعوا بفضل الموراد الغذائية المتنوعة التي وفرتها لها البحيرات الكبرى والأنهار وتكنولوجيا قادرة على استغلال تلك البيئة استغلالا مفيدا أن تنشئ عمرانا بشريا أكثر أهمية وأكثر استقرارا مما أقامه السكان السابقون، وأن السكان لم يزدادوا بفضل تلك العناصر بل سمحت أيضا بخلق مناخ فكري اجتماعي جديد تشهد عليه تلك الصناعات المعقدة والضرورية لصنع أدوات التنقل في الماء والخطافات العظمية الأحادية والمزدوجة الصفوف والسلال، كما أن أسلوب العيش المتطور الداعي إلى استعمالها يشهد على ذلك.

كما أن الدور الذي لعبه الفخار وما وصل إليه على غاية من الأهمية له شحنة حضارية تعبر عن طرق جديدة لتسيير إعداد الطعام وطبخه وحفظ السوائل والحبوب فيه.

لتصبح المنطقة مع مرور الوقت مركزا مهما لكبار مربي الماشية والقطعان أكثر من امتهان الزراعة التي تمثلت أساسا في الذرة البيضاء والصفراء واليقطين، كما امتهن الرجال تربة الماشية بينما امتهن النسوة الزراعة.

إفريقيا الوسطى

تمتد هذه المنطقة من حوض خليج غينيا إلى منطقة البحيرات الكبرى، وتضم كذلك التشاد والكونغو وإفريقيا الوسطى والغابون وزامبيا ورواندا وبورندي وغيرها، وهو ما يمثل الآن المنطقة الاستوائية أساسا، ويعتبر كساؤها الشجري المكوَّن أساسا من الغابة الكبرى أكثر الأكسية كثافة بإفريقيا بفعل التهاطل الكثيف للأمطار وعلى مدار السنة، وكانت هذه الغابات متوسعة أكثر نحو الشمال مقارنة بما هي عليه اليوم، وقد أخذت في التقلص منذ آلاف السنين، ولا شيئ يؤكد اتصال سكان هذه المناطق بسكان المناطق الأخرى ولا حتى مرورهم بها خلال رحلاتهم، كما يبدو أن عدد سكانها كان قليلا، حيث لعبت تلك الغابة الإستوائية الكبرى دور الحاجز الطبيعي الذي قلّل من الصلات بين الشمال والجنوب من خط الاستواء، وقد دامت الحضارات الحجرية الحديثة فيها أكثر من أي مكان أخر في منطقة كانت فيها هذه الحضارات منعزلة ومحمية، بينما كانت مناطق أخرى قد دخلت منذ أمد طويل في التاريخ باستعمال المعادن.

كانت المهارات كاملة ومنتشرة على نطاق واسع وعرفت المنطقة جل أنواع الصناعات الحجرية والخشبية والعظمية من فؤوس ورؤوس السهام والحراب والسكاكين والفؤوس والمطاحن والإبر والمثاقب والخطافات ذات الصف الواحد أو الصفين إضافة إلى بعض الصناعات الفخارية.

عاش أهالي تلك المنطقة في عزلة كادت تكون تامة إلى أن جاء قوم ينتمون إلى العصر الحجري الحديث، أتوا من الشمال فرارا على مايبدو من المناطق الصحراوية التي أخذت تتحول إلى أراض قاحلة.

أراد الباحثون الأوائل الذين اهتموا بدراسة إفريقيا الوسطى في هذه الفترة أن يعثروا على فترات تشبه الحقبات الموصوفة بإفريقيا، على أنه ينبغي أن ندرك أن علم الآثار يعاني هناك بسبب الغطاء النباتي الكثيف، كما أن حموضة الأرض والعوامل المناخية لم تسمح بالمحافظة على البقايا العظمية، وذلك ما يفسر انعدامها في غالب المواقع المدروسة، لذا أصبحت إعادة محيط الانسان في ماقبل التاريخ عنصرا هاما في الأبحاث الأثرية.

كان سكان المنطقة يجهلون حرفتي الرعي والزراعة، حيث اعتمدوا في غذائهم على النباتات البرية وصيد البر والبحر، أما أهمية صيد السمك في هذه المناطق فتوضحه السنانير التي تم العثور عليها في الكثير من المقابر.

المحاضرة الرابعة

إفريقيا الغربية

ينبغي كذلك الأخذ بعين الاعتبار معطيات المناخ بهذه المنطقة لفهم ماقبل التاريخ، فتتميز منطقة إفريقيا الغربية بالتهاطل الغزير للأمطار كلما اتجهنا نحو السواحل، وتتناقص كلما اتجهنا نحو الشمال حيث الصحراء، أما في الجنوب فنجد منطقة السباسب الكبرى تتوسطهما الغابات المطرية الكثيفة، تضم المنطق مرتفعات غينيا والطوغو والكاميرون والنيجر والتشاد وغانا ونيجيريا والسنغال وليبيريا والبنين وغيرها.

لم تنتج إفريقيا الغربية في الفترة التي سبقت العصر الحجري الحديث –لحد الآن– الأشكال الإنسانية القديمة كما كان الحال في إفريقيا الشرقية والجنوبية، ولا الكثير من الأدوات، كما أن طبيعة المنطقة لا تسمح بحفظ تلك المخلفات أيضا، ضف إلى ذلك فإن تلك المنطقة لا تتوفر فيها

حيوانات الصيد من حيث الكثرة والتنوع مثلما هو الحال في إفريقيا الشرقية والجنوبية، ويمكن اعتماد الفترة الممتدة إلى غاية 500 سنة ق. م. فترة العصر الحجري الحديث في إفريقيا الغربية.

ظهرت هنا كذلك الصناعات الحجرية الصغيرة المثبتة بالسهام ما يدلّ على أن أصحابها كذلك كانوا يملكون القوس وأن الصيد به كان يلعب دورا كبيرا ومهمًّا في اقتصادهم، كما ظهرت بعض القطع العريضة من الصيوان تسمى المعازق وهو ما يدل على وجود الفلاحة، كما وجدت بالمنطقة بعض الصناعات الفخارية والفؤوس اليدوية، إضافة إلى ظهور المهاريس المنحوتة وبعض الصناعات العظمية، إذا فقد كان سكان المنطقة يتعاطون الفلاحة واستوطنوا الكهوف والمخابئ تحت الصخور، كما يظهر أن سكان المناطق الساحلية قد توصلوا إلى استثمار الأصداف لتكون طعما لصيد الأسماك أو للتغذي عليها.

إن جميع السكان على الساحل الغربي هم عبارة عن مجموعة من المزارعين يتوزعون في الأمكنة التي تكثر فيها المياه لتساعدهم في أعمالهم الزراعية.

إفريقيا الجنوبية

تعتبر المنطقة مسكن الانسان الأول وهي منطقة تتميز بالسباسب والغابات المتوسطة الكثافة، كما عرفت المنطقة مناخا مستقرا نسبيا يساعد على الاستمرار.

تتشكل المنطقة من هضبة واسعة، تغطي الجهة الشرقية منها الأحراش والمراعي الواسعة، وكلما اتجهنا نحو الغرب نلاحظ ازدياد درجة التبخر وظهور الجفاف في السهول الواسعة وتضم كل من زمبابوي وملاوي وزامبيا وجنوب إفريقيا ومدعشقر وغيرها.

إن المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث تفوق عدد المواقع المعروفة في العصور السابقة في المنطقة، وكانت هده الفترة فترة تزايد ديموغرافي في المنطقة، كما أنه في هذه الفترة إحتُلت الكهوف والملاجئ تحت الصخرية أكثر فأكثر، كما استغل انسان هذه المنطقة في هذه الفترة موارده المحلية أكثر من ذي قبل، وتبين بقايا الحيوانات المكتشفة بمواقع الإقامة الأهمية المتزايدة للصيد، خاصة بين الساحل والمناطق الداخلية الجبلية، كما أثبتت لنا الدراسات وجود تنقلات إحدى الجماعات بتتبع الموارد الفصلية من الماء والأعشاب والحيوانات، ما يؤكد على أنه كانت تقع اتصالات منتظمة بين مجموعات متجاورة.

تنحصر صناعات العصر الحجري الحديث بالمنطقة في الصناعات المتكونة أساسا من الحجارة الصغيرة والمكاشط والمحكات والأدوات الحادة المستعملة كرؤوس سهام، ما يؤكد على استعمال

القوس والسهم في الصيد، إضافة إلى وجود أدوات عظمية أخرى وأسلحة الرمي، تواصل إنتاج هذه الصناعات إلى الألف الثانية قبل الميلاد.

إحتل الصيادون القاطفون من العصر الحجري الحديث بعضا من المناطق التي تعد من أغنى المناطق في العالم من حيث الموارد الغذائية الحيوانية والنباتية، ولما كانت موارد الصيد هذه لا تنفذ وجد الصيادون متسعا من الوقت لتعاطي أنواعا من النشاط الفكري خاصة فن الرسم الصخري مثل طريقة عيش هؤلاء الصيادين القاطفين بهذه المنطقة في هذه الفترة، مع عدم وجود آثار لصناعة الفخار.

كما مارس سكان الجنوب صيد الأسماك خاصة بتقنية فخاخ السلة المصنوعة من الخشب ذات الشكل المخروطي، حيث كانت توضع هذه الفخاخ في مجرى النهر كما توضحه الكثير من الرسومات الصخرية بالمنطقة، إضافة إلى استعمالهم للسنارات رفيعة من العظم مسننة وبها قاطع، إضافة إلى استعمالهم الحراب وهم واقفون في القوارب، كما كانوا يصيدون كذلك عجول البحر بالضرب بالعصى حتى الموت أو بالقوس، فسكان هذه المنطقة لم يكرسوا جهودهم لتدجين الحيوانات والزراعة، وإستعملوا القرب وبيض النعام لنقل الماء، ولا يوجد ما يوثق أنهم استعملوا الفخار في ذلك، كما اعتمدوا على أكلهم أيضا على القواقع والمحار والحشرات وبعض الحيوانات الصغيرة.

المحاضرة الخامسة

أشهر السلالات البشرية الإفريقية:

عاش في هذه الفترة في إفريقيا جنوب الصحراء انسان شديد الشبه بالإنسان المعاصر، بمخ مماثل تماما لحجم مخ الانسان المعاصر، ولهذا يمكن اعتبار هذا الأخير نوعا من الانسان المعاصر، عُثر على أولى بقايا هذا الانسان بإفريقيا جنوب الصحراء سنة 1921 بمنطقة الهضبة المنكسرة في زامبيا، وبعد مرور 20 سنة عثر على جمجمة أخرى لهذا الانسان في منطقة خليج سالدانها بالقرب من كيب تاون بجنوب إفريقيا، وقد ظهرت بعض الاختلافات بين الانسان العاقل بإفريقيا جنوب الصحراء ونظيره بأوربا وآسيا وشمال إفريقيا، وقد كان للعوامل المناخية الأثر الكبير لذلك، فقد كان الانسان العاقل بإفريقيا جنوب الصحراء ذو بشرة داكنة وقليل الشعر الذي يغطي جسمه،

وكان الفاصل بين انسان إفريقيا جنوب الصحراء متمثلا في الصحراء الكبرى، كون انسان شمال إفريقيا وأوربا وآسيا متشابهون فيما بينهم ومختلفون عن نظيرهم بجنوب الصحراء.

جاء تحول الانسان العاقل إلى الانسان المعاصر أو العاقل العاقل الذي يعيش في عالم اليوم نتيجة لتكوين بعض جينات الوراثة الجديدة، وقد اختفت من إفريقيا كلها السمات الخاصة بثقل الحواجب ونتوء الجبهة.

تفرع عن هذا في بداية الأمر وعاش في قارة إفريقيا أكثر من عشرة أجناس متمايزة، وأن أربعة منها لا يوجد لها مثيل في أي مكان آخر غير القارة الإفريقية.

مهما يكن العصر الذي ظهر فيه السود في إفريقيا وتكاثروا فيه، فإنه لاشك قد حدثت بينهم إتصالات مع رجال من اللّون الأبيض أصلهم من إفريقيا الشرقية.

– *السلالة الفرعية السودانية:* (سود المروج الخصبة) ***Noirs de la brousse*** تحتل منطقة السهول الواسعة التي تقع جنوب الصحراء والسنغال وحتى مقاطعة كوردوفاي، وهم ذوو قامة طويلة وجسم ممشوق وجلد شديد السواد ووجود بروز في الكتفين، أما النموذج الصحيح للسودانيين فهم شعب الأولوف الذين يقطنون ضواحي دكار، كما نجد في الجهة الشرقية قبائل المالينكي ***Malinké*** والهاوتس ***Haoussa*** وقبائل السار ***Sara***.

– *السلالة الفرعية الغينية:* قامتهم تميل إلى القصر ولكنهم أكثر ضخامة، تقطن هذه السلالة خط الغابات الذي يحاذي خليج غينيا حتى الكاميرون.

– *السلالة الفرعية الكونغولية:* تنتشر على طول الغابة الاستوائية التي تمتد إلى الجنوب حتى شاطئ أحد روافد الكونغو، وبنية هؤلاء ضعيفة بصورة عامة، وكذلك فإن بروز الفكين عندهم واضح وأطرافهم قصيرة، إلا أنها مفتولة العضلات.

– *السلالة النيلوتية أو النيلية:* يتميز رجالها بطول قامتهم وأجسادهم ممشوقة ووجوههم مستقيمة وذوو ملامح أوربية أكثر منها إفريقية سوداء، تقطن هذه السلالة منطقة المستنقعات والمروج التي تمتد من الخرطوم في الشمال وحتى بحيرة فيكتوريا جنوبا.

– *السلالة الفرعية لإفريقيا الجنوبية:* وتضم السود الذين يعيشون جنوب الكونغو حتى المحيط الهندي، ويميل لون بشرتهم إلى قلة السواد، وكذلك البنية العامة فهي تزيد عن الوسط وبروز الفكين معتدل والملامح العامة رقيقة نوعا ما، وبما أنهم كانوا ضحايا الغارات والحروب الكثيرة، فهم يعيشون اليوم حياة الرعاة وغالبا ما يشكلون اليد العاملة في إفريقيا الجنوبية، وأن جزء من هذه السلالة يشكل جزء من سكان مدعشقر السود .

أما المنطقة التي تقع إلى أقصى الشرق من إفريقيا فهي مأهولة بالسلالة الإثيوبية ذات البشرة القريبة للون الأسود الداكن، أجسادهم فارغة وشعرهم مجعّد ووجوههم مستقيمة، وهذا ناتج من اختلاط السود بالغزاة البيض الذين أتوا على الغالب من شبه الجزيرة العربية.

وفي الشمال نجد مجموعة أخرى يطلق عليهم اسم النوبيين حتى أعالي منطقة الشلال الثاني حيث تنقطع فجأة سلالة السود، وفي الجهة الجنوبية حصلت اختلاطات بين الإثيوبيين والنوبيين كوّنت فيما بعد ما يطلق عليهم نصف حاميين وهم الماساي والناندي والسوك وهم رجال ذوو قامات رفيعة وبشرة فاتحة اللون.

وفي الأخير ، ففي كل أنحاء السودان الغربي من حدود السنغال حتى بحيرة التشاد تعيش جماعات إلى جانب المزارعين السود وهم البول ***peul*** الذين يتحلّون بصفات أقرب للأوربيين منها للزنوج السود، فلون بشرتهم فاتح وشعرهم مموج.

– البوشمان:يمثلون أقدم جماعة بشرية ظهرت في إفريقيا الجنوبية، كانوا يشغلون المنطقة التي تقع جنوب نهر الزامبيز، لكن أحفادهم الذين جاؤوا بعدهم قد تراجعوا وأصبحوا اليوم يتنقلون في صحراء كالاهاري فقط، حيث لا يوجد هناك لا سهل خصب ولا مروج تجلب إليها المزارعين، وكانت الطرائد تمثل غذاءهم الأساسي، وبعد أن أبيدت هذه الطرائد لجأ بعضهم إلى السهول المستنقعية المليئة بالبحيرات المائية في الجنوب الغربي من جنوب إفريقيا وأنغولا، ورغم تأثير من جيرانهم من قبائل الهوتانتوس وبعض السود، فلا تزال هناك بعض الآثار من مدينة البوشمان الصحيحة، تلك المدينة التي تتميز برسومها المنقوشة على الملاجئ الصخرية.

هذا وأن ملاحقة الطريدة والبحث عن مواضع المياه النادرة يقضيان بوجود حياة دائمة الترحال والتنقل، وأينما وجدوا يقيمون أكواخهم المصنوعة من لحاء الأشجار والمغطاة بأغصانها، فلا زراعة لديهم ولاتربية المواشي وأن الكلب هو الحيوان المستأنس الوحيد عندهم، وأن وسائل الصيد وصناعتها عندهم كانت جدّ متطورة، ومن الرسوم الصخرية رسم يمثل صيادا مسلحا بقوس ولابسا جلد النعام، حيث يتمكن بذلك من الاقتراب إلى الفريسة، وهذه الحيلة لاتزال موجودة عند بعض الشعوب الإفريقية.

والبوشمان قصار القامة لا يزيد طولهم على 150 سم، جسدهم نحيف وبشرتهم صفراء إلى بنية وهم لا يختلطون بجيرانهم، وأهم مظاهر تميزهم الحضاري هي الدرجة العالية من الفن الذي وصلوا إليه في النقش على الصخر.

وينقسم البوشمان إلى وحدات سياسية واجتماعية يقودها أمهر واحد بينهم، وكذلك فحدود المنطقة التي يمكن للقبيلة الواحدة أن تصطاد فيها وأن ترتوي من مائها وتجمع إنتاج نباتاتها، هذه الحدود تكون معينة بواسطة شجرة مثلا أو حفرة أو بخط من الكثبان الرملية، ويذكر أن أكثر الاصطدامات التي تقع بين القبائل سببها خرق تلك الحدود.

– *الهوتانتوس:*أو الهوتانتوت، ربما جاءت من اجتماع قبائل البوشمان مع بعض السود، وهذه القبائل تنتقل من مرعى لآخر في جميع أنحاء الجنوب الغربي من إفريقيا، ويمكن تقسيم الهوتانتوس بحسب اللغة إلى أربعة مجموعات رئيسية هي: الناما والكورانا والغونا والهوتانتوس القدماء الذين اختفت معالمهم اليوم، وقبائل الهوتانتوس بصفة عامة رعاة يتبعون ماشيتهم من مرعى لآخر، يقتصر أكلهم على الحليب وجذور النباتات وبعض الحبوب، أما اللحوم فيأكلونها في الأعياد وحين تقديمها كأضاحي فقط.

غالبا ما يرتبط اسمهم دائما باسم البوشمن ويشبهونهم شكلا وثقافة وينتشرون في إفريقيا الجنوبية ويشتغلون بالرعي وتربية الأغنام وهم أطول من قامة البوشمن بقليل، وأن القبائل الصافية التي بقيت منهمفنراها اليوم في المروج الجنوبية جنوب غرب إفريقيا.

– *الأقزام: أشار*في القديم اليونانيون إلى وجود سكان في إفريقيا ذوي قامة قصيرة جدا أطلقوا عليهم اسم الأقزام.

أما هوميروس فقد تحدث في إلياذته عن معارك طاحنة تحمّل وطأتها الأقزام ضد الرهاء ***les grues***، إلا أن مثل هذه الحكايات كان يُنظر إليها حتى القرن الأخير نظرة الأساطير فقط، إلى أن جاء شوينفورت فأكّد وجود رجال ذوي بنية ضعيفة جدا في إفريقيا الوسطى، كما أكّد ذلك شايو وجودهم في إفريقيا الاستوائيةبالغابون وأبرز شيء معروف عنهم هو قامتهم التي تقل عن 1.5 متر ولون جلودهم أسمر محمر وبقية أجسادهم مغطاة بالشعر وكذلك رؤوسهم مدورة وأنوفهم عريضة جدا ورأسهم ضخم وسيقانهم قصيرة، بحيث تجعل اليدين تبدوان أكبر مما هما عليه، كما أن النبض عندهم بطيء، ولكل الأقزام مسكن واحد وهو الغابة مبعثرين داخلها في جماعات صغيرة وكلّهم يعيشون على الصيد والقطف ويجهلون الزراعة وتربية الماشية وعمل النسيج والفخار.

ويمكن تقسيم قبائل الأقزام إلى ثلاث مجموعات: الأقزام الشرقيون أو البامبوتي ***Bambouti***، أي رجال الغابة وأقزام المنطقة الوسطى وهم جماعة الباكوا ***Bacwa*** ويسكنون منطقة الروافد اليسرى لنهر الكونغو و جماعة البابينغا ***Babinga*** التي تسكن منطقة البابينغاوالسانغا ***Babinga et***

Sanga والأقزام الغربيون، ويسكنون منطقة الغابون وهم جماعة الآكوا ***Akoa*** والبابونغو ***Babongo*** والبيكوي ***Bekwi***، وقسم آخر يسكن منطقة الكاميرون وهم الباكا والباجيللي.

أما مراكز سكنهم فهي عبارة عن حلقات من الأكواخ المبنية على شكل نصف دائري من مجموعة من الأغصان على شكل قوس، ثم تغطى جوانبه بالأوراق العريضة، والباب هو الفتحة الوحيدة في الكوخ، هذا ويستعمل الأقزام المغارة في بعض الأحيان كملاجئ في الأوقات العصيبة.

كان أقدم ذكر للأقزام في وثائق مصرية ترجع إلى الدولة القديمة أيام ملك من ملوك الأسرة الخامسة، وهناك خبر آخر من هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو الذي أطلق عليهم باليونانية لفظ ***pygmaioi*** ومعناها الرجل الذي لا يزيد طوله مابين كوع الشخص العادي وأصابع قدميه.

– الزنوج: لِسِعَة انتشار هذا الجنس تم تقسيمه إلى قسمين رئيسيين هما: الزنوج السودانيون والبانتو، وبصفة عامة يسود الجنس الزنجي جنوب الصحراء الكبرى والقرن الإفريقي، ويشكل الزنوج 70 % من جملة سكان القارة.

أ– الزنوج السودانيون: ينتشرون في المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد شرقا حتى السنغال غربا ومصب نهر النيجر وسواحل غانا في الجنوب، ويدعون أيضا بالزنوج النقاة أو الحقيقيون والسودانيون، ويسمون كذلك لأنهم أقل تأثُّرا بغيرهم، ويتصف الزنوج السودانيون بالبشرة السوداء وطول القامة، أنشأت هذه الشعوب ممالك قوية واسعة الأرجاء، وينقسم الزنوج السودانيون إلى عدد كبير من القبائل أبرزها قبيلة الولوف المتاخمة لنهر السنغال وقبيلة التوكولور والماندي إلى الشرق.

ب.– البانتو: أدت الهجرات الإفريقية على امتداد عدة قرون في وسط وشرق إفريقيا نحو الجنوب الغربي إلى اختلاط ضخم للشعوب الزنجية والتي تعرف بالناطقين بالبانتو، ومعنى ذلك أنها مجموعة زنجية لغوية واحدة وتمتد أوطانهم شمالا حتى خليج بيافرا وتستمر باتجاه شرقي مع تعرجات عديدة إلى الشمال ثم الجنوب عبر الكونغو وصولا إلى بحيرات أعالي النيل ويعبر كينيا حتى مصب نهر جوبا، ويتكلمون لهجات متعددة ويعتمدون في حياتهم على الرعي والزراعة وتربية الحيوانات حسب طبيعة الإقليم الذي يتواجدون فيه.

قسم العلماء والباحثون البانتو إلى ثلاث مجموعات:

قبائل البانتو الجنوبية: وتنتشر في موزنبيق وجنوب إفريقيا وبوتسوانا وليزوتو وجنوب غرب إفريقيا.

قبائل البانتو الغربية: يتمركزون في الكونغو والكاميرون والغابون وأنغولا.

قبائل البانتو الشرقية: يتمركزون في رواندا وأوغندا وبورندي وكينيا وتنزانيا ومالاوي وزامبيا.

– *النيليون الحاميون:* إلى الشمال من خط البانتو تعيش أقوام زنجية تأثرت كثيرا عن غيرها من الأجناس ويظهر ذلك في طول القامة والبشرة الفاتحة، وبقي لدهم الشعر المجعد الذي هو من الصفات الأساسية للجنس الزنجي، كما تأثرت لغتهم بلغة الحاميين.

جرت العادة على تسميتهم بالسلالات الحامية أو كما يسميهم البعض أنصاف الحاميين، ويتمركزون في مناطق واسعة من أعالي حوض النيل وهضبة شرق إفريقيا وأوغندا وكينيا.

المحاضرة السادسة

اللغات الإفريقية:

يرجح البعض أن انسان العصور الحجرية القديمة كان ينقل أفكاره في غالب أمره بالإشارة والحركة، ومن المرجّح أن الكلمات التي كان يستعملها الرجال الأوائل كانت في الغالب صيحات انزحاج أو انفعال، كما يرجح أن أولى اللغات كانت مجموعة من الحروف المنطوقة على هيئة حروف النداء والتعجب وأصوات تُقلّد أصوات الأشياء المسماة بها وهي مرتبطة بها، ولم يستحدث العقل الإنساني إلا ببطء وسائل للدلالة بطريقة شكلية الحديث، ومن الواضح أن الناس آنذك لم يكونوا بحاجة إلى كمّ كبير من الكلمات لأنهم لم يكونوا يسترسلون في المحادثة أو الوصف، فإذا كانت غايتهم مثلا قص الأقاصيص عمدوا إلى الرقص والتمثيل أكثر ممّ يقصّون، ولم تكن لهم طريقة للحساب تتجاوز طريقة الدلالة على الإثنين وطريقة ما للتعبير عن كثير، والحقّ أن نمو الكلام كان في البداية عملية بطيئة جدا، كما أن الصيغ النحوية والتعبير عن الأفكار المعنوية ربما ظهرت في التاريخ الإنساني متأخرة جدا.

بالرغم من أن كثافة السكان في إفريقيا أقل منها في العالم إلا أنها تحوي تشعّبا لغويا أكبر منه في سائر القارات، وفي إفريقيا مجموعة من اللغات تمتد من شمال خط الاستواء بقليل إلى نهايتها الجنوبية القصوى، وهي لغات البانتو يضاف إليها طائفة من اللغات الأخرى تمتد في وسط القارة، فالأولى شملت معظم إفريقيا الغربية من السنغال حتى النيل الأعلى، أما اللغات الآفروأسيوية والمدعوة أيضا حامية سامية وتمتد على كل إفريقيا الشمالية والقرن الشرقي الإفريقي: إثيوبيا والصومال وحتى تانزانيا، وتشمل هذه الأخيرة كل من البربرية والمصرية القديمة والسامية.

وهناك من يقسم اللغات إلى مجموعات أو أسرات أخرى منها:

– النيجر – كوردواني: تشمل هذه الأسرة فرعين مختلفي القيمة من حيث عدد الناطقين بها، ومن حيث انتشارها الجغرافي، فالفرع الأول منها النيجر – كونغو تمتد على جزء كبير من إفريقيا جنوب الصحراء وتشمل تقريبا كل إفريقيا الغربية وعدة جهات من السودان الأوسط والشرقي وبجزئه البانتو، وظهرت تقسيمات لغوية أخرى للمجموعة النيجرو – كونغولية وأهمها لغة الماندي. والجزء الثاني هو الكوردوفانية، وهي محصورة في منطقة محددة من جهة الكوردوفان الكائنة بالسودان.

– *الأسرة النيلية الصحراوية:* يتكلم بها بصفة عامة في شمال النيجر والكونغو وشرقيها وهي سائدة في وادي النيل الأعلى وفي الجهات الشرقية من الصحراء ومن السودان.

– *أسرة خوي سان:*أو الخواسان، تستعمل معظم لغات الخوي سان في إفريقيا الجنوبية، إلا أنه هناك مجموعتان صغيرتان من السكان منقطعتين بعيدتين جدا نحو الشمال في تانزانيا وهما الهاتسا والصنداوي وتختلف لغتهما كثيرا فيما بينهما، كما تختلف مع لغات إفريقيا الجنوبية.

– *الكوشيتية والتشادية:* إنتشرت هذه الأسرة اللغوية شرق التشاد وشرق إفريقيا وهي تتفرع إلى عدد كبير من اللغات.

– *البانتو:* يرى الباحثون وجود منطقة مركزية جنوب الغابة الاستوائية بمنطقة مستجمع الأمطار للزامبيزي هي نواة لغة البانتو الأولى وأن انتشار وتجزؤ هذه اللغة من منطقة المصدر نفسه.

يعتقد بعض اللغويين أن لغات البانتو التي تنتشر اليوم على بقعة تشمل نصف القارة الإفريقية تقريبا قد نشأت على الحدود ما بين نيجيريا والكاميرون، وقد عرفت تفرعات كثيرة أثرت وتأثرت بلغات كثيرة.

المحاضرة السابعة

الزراعة: ظهور التقنيات الفلاحية وانتشارها

يدل ظهور الزراعة على تغير بعيد المدى في أحوال الناس، فقد تطورت هي الأخرى على مهل، وكان الانسان قبل ذلك يعيش في مجتمعات صغيرة وكان يقضي حياته في اقتناص الغذاء، يتبع الحيوانات التي تعتبر طعامه الرئيسي، ثم أخذ يرعى تلك الحيوانات بعدما أصبح يربيها، ثم بدأ في زراعة الغذاء قصدا، وكان يحرُص المكان الذي يزرع فيه حبوبه التي كان يكمل بها غذاءه من اللحم، وتَحدد بذلك مجال تربصه لصيد الحيوانات بسبب رعيه ماشيته التي كانت نصف مستأنسة في انتظار المحصول ، ثم أخذ يبحث عن وسيلة يخزن فيها الطعام وبذلك دخل في طور العمل

والإنتاج وبهذا أصبحت أوقات أكلاته منتظمة بعدما كانت تعتمد على الصدفة المواتية ثم أصبح مدّخِرا بعدما كان يعيش تحت رحمة الصدف والظروف.

إن الأفكار الراسخة حول أصول الفلاحة بقيت مدة طويلة تعتقد بتمركزها بالشرق الأوسط وأنها منطقة المهد الزراعي والرعوي وأيضا مركز العصر الحجري الحديث، واعتبروا المنطقة أيضا نواة الحضارة وموطنها الأول، لكن لا يجب الإغفال عن المساهمة التي قدمتها إفريقيا لتاريخ هذه الفلاحة العالمية، تلك الأفكار المسبقة المتولدة عن الاستعمار وكذلك الجهل بأصول العديد من المكونات الزراعية الإفريقية، وبصفة أخص في فترة ماقبل التاريخ، جعلهم ولمدة طويلة ينتقصون أو حتى يجهلون الدور الذي قامت به إفريقيا في تطوير الفلاحة وتقنياتها ومواردها، إلا أن هذه النظرة تبدلت مع ظهور الاهتمام الحقيقي في دراسة أصول الفلاحة الإفريقية فكان ذلك الانتقال من قطف الثمار وصيد الحيوانات إلى الإنتاج الزراعي وتربية الحيوانات قد جعلت الانسان الإفريقي يتحرر تدريجيا من صعوبات الحياة، وفوق هذا رأى بعض الباحثين أن الأفارقة قد ابتكروا فن الزراعة مستقلين دون أن ينقلوها من الخارج، واعترفوا كذلك أن الزنوج كانوا في تاريخ مبكر يزرعون أنواعا من البقليات (أنواعا من الذرة الرفيعة والأرز وغيرها) والفول السوداني والقرع والبطيخ.

ومن المتفق عليه كذلك أن أعظم إنجاز حدث هو زراعة القطن البري وتطويع خيوطه للنسيج وكذلك استخلاص الزيوت من بعض النباتات، ويعتقد أن معظم هذه النباتات قد انتقلت زراعتها إلى المصريين فيما بين 3000 و 1000 ق. م. ثم إلى أوربا والهند، والمحصولات الأساسية التي آلت من منطقة مابين النهرين ومصر عبر النيل كانت الشعير والقمح والفول والعدس والبصل والعنب والبطيخ والتين والزيتون.

استطاع الزنوج منذ ما يقرب 2000 أو 3000 سنة ق. م. أن يقيموا اقتصادا مبنيا على الزراعة الدائمة في المنطقة الواقعة بين الغابة والصحراء، وهناك أدلة كثيرة على أن المنطقة التي تعرف باسم الصحراء كانت في تلك الفترة أكثر خصبا وكانت تستوعب كثيرا من السكان الذين ينتشرون فيها ويرعون قطعانهم، وأن الزراعة في تلك المنطقة كانت ممكنة بدون استخدام الري في معظم أجزائها حتى حوالي 2000 ق. م. وأن رعي القطعان كان منتشرا حتى 1000 ق. م.

الأصل الإفريقي لبعض النباتات المزروعة

حتى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين كان الاعتقاد السائد هو أن الزراعة في إفريقيا جنوب الصحراء جاءت في تاريخ متأخر، إلا أنه أثيرت تساؤلات كثيرة حول هذه النظرية التقليدية وعن

أصول الزراعة، حيث حددت مناطق أصل الكثير من الزراعات بغرب إفريقيا حول منابع نهر النيجر والسنغال، ومن الواضح مع ذلك أن اليام (أحد أنواع الأرز) والذرة الصيفية وزيت النخيل ومحاصيل ثانوية أخرى كثيرة هي كلها محاصيل محلية في غرب إفريقيا، كما وجدت بإثيوبيا محاصيل زراعية كثيرة مثل التف **tef**وغيره من الحبوب بجانب نبات الموز البري، وأن الزراعة تطورت هناك في وقت مبكر وربما في حوالي 3000 ق. م.

كما يبدو أن دلتا النيجر ومرتفعات فوتاجالون في أعلى حوض السنغال ونهري النيجر وناميبيا والبيئات السودانية بشكل عام كانت مناطق بؤرية لبعض المحاصيل كالأرز والقمح الغيني.

مركز البحر الأبيض المتوسط: ترتبط بهذا المركز مجموعة كاملة من النباتات المزروعة التي تمتاز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط من ذلك الحبوب والبقول الجافة، وهذه النباتات تدل على وجود قرابة بين هذا المركز ومركز الشرق الأدنى، إضافة إلى الزيتون والبلوط، إلا أن البعض من هذه النباتات تختص بها إفريقيا فقط كاللوز.

المركز الحبشي: نجد فيه قرابة نباتية توليدية مع مركز الشرق الأدنى من حبوب وبقول جافة، ويبدو أن هذه النباتات الآتية من آسيا قد مرت من هذا المركز عند تغلغلها في إفريقيا، كما كان لهذا المركز نباتات مولدة تختص بها، منها شجرة البن والموز الحبشي وغيرها.

مركز شرق إفريقيا: يمتاز بأنواع مختلفة من الذرة.

مركز غرب إفريقيا: نجد فيه أصل مختلف أنواع الذرة وكذلك مختلف أنواع الأرز في المناطق الأكثر رطوبة.

ومما لاشك فيه أن حضارات الموطن الفلاحي وسعت حقولها على حساب الغابات عندما اعترضتها في توسعها، وقد ساهم هذا الوضع في تطور عمليات تحويل تلك المناطق إلى سباسب خاصة الذرة كما سبق ذكره والتي تعتبر إفريقيا موطنها الأصلي، ومنها بلغت إلى مناطق أخرى متعددة من العالم، كما أن زراعة الأرزكانت قائمة خاصة غرب إفريقيا وهو أنواع من الأرز الخاصة بإفريقيا والتي لا علاقة لها مع الأرز الآسيوي.

يُظهر كل هذا بوضوح وجود حضارات زراعية نشأت اعتمادا على الموارد النباتية المتوفرة بالبيئة المحلية وبدون أن نتصور بالضرورة وجود تأثيرات خارجية عن إفريقيا.

وكما صدرت إفريقيا بعض الأنواع النباتية مثل الذرة، فإنها استوردت من جنوب شرق آسيا بعض النباتات على غرار الموز الذي غزى بسرعة الغابات المدارية الإفريقية، كما كان الحال بالنسبة لبعض الحيوانات.

أما فيما يخص ضبط الفترة ضبطا دقيقا لما قبل تاريخ الفلاحة الإفريقية وتاريخها فالأمر ليس سهلا يسيرا على أننا نعتقد أن الفترة الحاسمة في بداية عمليات بداية التأهيل في إفريقيا طرأت بين الألف التاسعة والألف الخامسة قبل الميلاد لتجني ثمار مجهوداتها بداية من الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد.

المحاضرة الثامنة

إكتشاف المعادن وانتشارها في إفريقيا جنوب الصحراء

ربما كان الحيثيون أول من صهر الحديد في حوالي سنة 2000 ق. م.، ولم يستعمل هذا المعدن في مصر إلا بعد مضي 1000 سنة، وعرفت قرطاجة هذا المعدن في نحو سنة 500 ق. م. ، وانتشرت صناعة الحديد في أعالي النيل من مصر في القرن 05 ق. م. حيث أصبحت صناعة الحديد صناعة كبرى في مروى (على بعد قليل من الخرطوم).

وتعتبر مروى منطقيا مصدر معرفة الزنوج للحديد (بالجهة الشرقية للقارة الإفريقية)، ولما كان النيليون حريصون على الاحتفاظ بسرّ هذه الصناعة، فمن المحتمل أن تكون قرطاجة هي التي علّمت سكان إفريقيا الغربية فن صهر هذا المعدن، واستخدموه أولا في استغلال مناطق السفانا، حيث أن الآلات الحديدية والحربية يسّرت غزو واستغلال الغابات الاستوائية، هذا وقد ظلت الأدوات الحجرية و العظمية أكثر رواجا.

يمتاز العصر الحديدي المبكر في إفريقيا بوجود مجتمعات صغيرة متفرقة نسبيا وليس بتطور الدول التي لم تظهر هنا إلا في فترة متأخرة، ويمكن اعتبار فترة العصر الحديد المبكر في إفريقيا كمرحلة انتقالية من العصر الحجري إلى العصر الحديدي المتأخر، حيث وجدت بعض المواقع تحوي على مزيج من الصناعات الحجرية المتطورة أو المزدهرة مختلفة مع آثار لصناعة الحديد، كما كانت هناك صلات بين أقوام عاشوا إبان العصر الحجري الحديث وبين طليعة عمال المعادن.

أما مجالات استعمال الحديد فقد استعمل لتطهير مناطق الأشجار الخفيفة والأدغال، لذا تعد الأداة القاطعة على سكين كبير أنسب أداة يمكن استعمالها لهذا الغرض، هذا إضافة لرؤوس السهام المستعملة للصيد وبعض الأدوات الزراعية وغيرها.

تعود أقدم صناعة ثابتة للحديد في إفريقيا جنوب الصحراء بإفرقيا الغربية بمنطقة طاروقة بهضبة جوس بنيجيريا والتي تعود إلى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد، وكانت البداية بجهد شاق وبالطرق المستعملة عادة في الصناعة الحجرية، حيث وُجد بتلك المنطقة إلى جانب تلك الصناعات أفران يبدو أنها كانت أفران صهر الحديد، ويبدو أن تلك الصناعات الأولى بنيجيريا ربما يعود مصدرها من الشمال الإفريقي، حيث نشر الفينيقيون تكنولوجيا صناعة الحديد من المشرق إلى أجزاء من سواحل إفريقيا الشمالية إلى إفريقيا الغربية عن طريق موريطانيا، أما أصحاب فكرة محلية استخدام الحديد بإفريقيا جنوب الصحراء فهم يرون أن حديد المنطقة خفيف وكان يستخرج من السطح ويحتاج إلى درجة إنصهار أقل، وقد تم الحصول على ذلك الحديد المصهور ربما من خلال تجارب حرق الفخار، لتظهر صناعة الحديد بعدها في إفريقيا الشرقيةبإثيوبيا والتي يبدو أنها جاءت من مصر أو من شبه الجزيرة العربية، وهي عبارة عن تصميمات وسم (كي) الماشية، في حين تعود أولى النماذج الأخرى لصناعة الحديد في باقي مناطق القارة إلى فترات جدّ متأخرة، أما في الجنوب فالبحث مازال مستمر حول انتشار الحديد عبر طريق شرقي، حيث أن الأدلة الحاضرة توحي بأن القرن الرابع أو الخامس ميلادي هو زمن دخوله.

وبهذا يمكن القول أيضا أن احتمال صناعة الحديد جلبت إلى إفريقيا عن طريق عدة جبهات، فجاءت من شمال إفريقيا عن طريق موريطانيا تحو الجنوب الغربي وآخر عبر الصحراء إلى نيجيريا وثالث عبر البحر الأحمر إلى إثيوبيا، كما اقترح مؤخرا أن صناعة الحديد ربما تطورت محليا، ولسوء الحظ لايمكن إثبات أي نظرية حول صناعة الحديد المبكرة، فلا يمدنا أي من مواقع الأفران القديمة بمعلومات.

المحاضرة التاسعة

الفن الصخري

تُمثّل إفريقيا الصحراوية وإفريقيا الجنوبية الموطنين الأساسيين لفن ماقبل التاريخ يزين عموما الهضاب والجبال، حيث عثر هناك على الآلاف من النقوش والرسوم، وقد أصبح البعض منها مشهورا عالميا، وقلّما نجد بين أقطار إفريقيا بلدا لا توجد به آثارا فنية تعود لفترة ماقبل التاريخ.

ويمكن تمييز أربعة مراحل كبرى للفن الصخري بالمنطقة أخذت تسمياتها من أنواع الحيوانات الرئيسية المرسومة، فنجد مرحلة الحيرم ***Bubale*** وهو عبارة عن جاموس ضخم مُثّل في الفن الصخري منذ حوالي 09 ألاف سنة قبل الحاضر حتى حوالي 06 ألف سنة قبل الحاضر، وقد ظهرت حيوانات أخرى إلى جانبه كالفيل والكركدن، ثم المرحلة البقرية بظهور البقر والثور الإفريقي في حوالي 06 ألف سنة قبل الحاضر، ثم تأتي مرحلة الخيليات بظهور الحصان الذي يجرّ أحيانا العربة والذي ظهر في حوالي 3500 سنة قبل الحاضر، ثم مظاهر الرقص والصيد وغيرها في الفترة الأخيرة، أما عن أهم التقنيات فنجد النقوش التي تنفذ على صخور أقل صلابة وباستعمال حجارة حادة، ثم الرسوم التي منها ذات اللون الواحد أو متعددة الألوان.

أولى المجتمعات الإفريقية

تحول فيها الاقتصاد من اقتصاد طفيلي بصفة رئيسية يعتمد على ما تجود به الطبيعة إلى اقتصاد يتحكم في وسائل إنتاج الطعام من النباتات والحيوانات على حد السواء، وتحولت التكنولوجيا فيها من تكنولوجيا بسيطة قوامها في الغالب الحجارة والخشب إلى تكنولوجيا أكثر تعقيدا تعتمد على مختلف ضروب المعادن، وفي هذه الحقبة وُضعت الأسس التي قامت عليها المجتمعات الإفريقية التي نعرفها اليوم، فتعدلت الحدود بين المجموعات اللغوية بعض الشيء وانتشر السكان انتشارا جذريا وأصبحت التجمعات الاجتماعية والسياسية أكثر تعقيدا، وأن أغلب هذه المظاهر السكانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية كانت قد تحدّدت في إفريقيا جنوب الصحراء خلال الربع الأخير من الألف الأولى قبل الميلاد.

أخذ الانسان هنا يعتني بالنار كي لا تنطفئ ويخرج لصيد طعامه بمعداته التي صنعها، وهكذا تكونت الجماعات البشرية الصغيرة وظهر توزيع الأدوار بين النساء والرجال، ثم استقر استقرارا مؤقتا ثم استقرارا صحيحا حول مصدر الماء وحول مزارعه وحيواناته، وهكذا أصبح لديه كل شيئ متوفر على مدار السنة، ولا توجد أشياء تنقصه تجبره على الرحيل، وأصبحوا يتكاثرون وإذا بهم أصبحوا يجدون أنفسهم موفوري العدد ما أوجد نوع من المنعة تقيهم من أي معتدي طارئ.

فظهرت القرى الصغيرة وظهرت معها فكرة إحاطتها بسور دفاعي، كما ظهرت فكرة سيادة شخص على قبيلة فأصبحوا يختارون الأنسب لتولي شؤونهم، كما أصبحوا يؤلهون أشياء يعتقدون أنها مصدر بعض القوى الطبيعية الخارقة فأصبحوا يعبدونها، ثم اتحت تلك القرى فيما بينها وظهرت المبادلات التجارية بينها، وأخذت عملية المصاهرة بين بين هذه القبائل تتوسع أكثر فأكثر، كما

لجأوا إلى التحالفات لصد الهجمات الخارجية، وغير ذلك، إلى أن كونوا مجتمعات قائمة بذاتها كانت نواة ممالك أصبح لها شأن كبير في التاريخ الإفريقي.

استغلت في هذه الحقبة ثلاث معادن وهي النحاس والحديد والذهب، كما استمر استخدام الحجارة حتى بعد استخدام المعادن في المعدات والأسلحة الأكثر أهمية، فتم استخراج النحاس لأول مرة في موريطانيا، ربما في الربع الأول من الألف سنة الأولى للميلاد ثم في مالي والنيجر في منطقتي نيورو وتاكيدا، أما الذهبفليس هناك دلائل تشير إلى استغلاله قبل القرن الثامن أو التاسع للميلاد.

التجارة: يحتمل وجود نوع من أشكال التبادل المنتظم المستمر بين المجتمعات، فمثلا يكون صائدو الأسماك أو جامعو الغذاء أو الصيادون عامة مارسوا تجارة وتبادلات تجارية لمعدات لا تتوفر عندهم كبعض المعدات والنباتات واللحوم والأسماك، وانتشرت هذه التجارة بظهور المعادن وأصبحت هذه الأخيرة لا تتصف فقط بالمحلية وأنشئت شبكات الاتصال الموسعة.

بالتوفيق

الأستاذ سمير بوطيش